النهاية .. في "بداية ونهاية"

بقلم محمود حشمت عبد الظاهر

من الملاحظ ان النهايات المفجعة تسود روايات نجيب محفوظ ، وخاصة روائعه الاربع : « فضيحة في القاهرة » ، « وخان الخليلي » « وزقاق المدق » « وبداية ونهاية » ، فهي تعبر عن مأساة الطبقة المتوسطة في مرحلة معينة من مراحل تطورها .. مأساة البورجوازية الصغيرة وانعزالها ، وقوقعتها حول نفسها ، وحلولها الفردية لمشاكلها التي تفشل في النهاية وتصطدم بظروف المجتمع ، ووضعها كطبقة مقهورة .. فتكون النهاية التراجيدية .. المأساة...

ففي « فضيحة في القاهرة » نرى « محجوب » لا يعنيه من كل التيارات والمذاهب والاحداث التي تتصارع الا ان يعلق عليها بكلمة « طظ !! » ، ولا يفكر الا في حل فردي لمشكلته لا يتأتى الا على انقاض الشرف... كل الفضائل والقيم ، ومع ذلك فهو حل مؤقت مجرد مخدر .. لانه حل فردي ، فلا يلبث ان ينتهي محجوب نهاية سيئة . وفي « خان الخليلي » يضطر « احمد عاكف » الى الانقطاع عن التعليم والالتحاق بوظيفة ليعول اسرته ، ويظل على الدرجة الثامنة عشرين عاما فتتعقد نفسه ، ويفشل في دراسته العليا فيزداد تعقيدا وانعزالا ، ويمرض اخوه الشاب بالسل لسهره وانحرافه ، وتقضي عليه قيم طبقته وظروف مجتمعه ، فهو يجد نفسه في عمله حتى لا يرفت ، ولكي لا يكشف سره ، ويستمر في نزهاته مع خطيبته على حساب صحته حتى لا يعرف انه مريض .. بالسل ! ، واخيرا تأبى قيمه ان يقبل العلاج في المصحة ، وحتى عندما يذهب اليها في النهاية بعد ان ساءت حالته ، لا يستطيع البقاء فيها الا يومين فقط ، وعند عودته الى البيت .. تكون المأساة .. الموت .

وفي « زقاق المدق » نجد « عباس الحلو » بعد ان اقترب من تحقيق امله ، وجمع المهر وتكاليف الفرح من عمله بثكنات الانجليز ، تراه يفجع في حبه ، ويقتل بايدي هؤلاء الانجليز انفسهم !! فطبيعة وجودهم ، وكثرة جنودهم وجنود الحلفاء اثناء الحرب العالمية الثانية تحتم وجود فئة منحرفة منحلة تثري على حساب تقديم كافة المتع المحرمة لهم ، وتبهر الحياة خارج « زقاق المدق » حميدة خطيبة عباس ، ولا تجد متنفسا ومنقذا لطموحها وتمردها وطاقاتها وبؤسها ، وركود الحياة في الزقاق الا ان تنحرف ، وتمتهن الترفيه عن الجنود الذين ملأوا العاصمة ، وحين يراها عباس في وضع مشين ويندفع اليها ، يتقاذفه الجنود ويفتكون به .

اما رواية « بداية ونهاية » فهي وان كانت تسير في نفس الخط والاتجاه ، الا انها تزيده عمقا ، وتزداد صدقا ووعيا في التعبير عن مأساة الطبقة المتوسطة .. فالقصة تصور حياة اسرة مات عائلها الموظف الصغير – وهكذا كانت البداية مأساة – وتتبع تطور حياتها بعد هذه المأساة .

لقد وضع نجيب محفوظ هذه الاسرة في مفترق الطرق .. في مهب الريح ، وعليها ان يشق طريقها ، وان تعيش حياتها في هذا الجو الجديد ، وسط كل هذه السحب والظلمات التي كانت تسود مجتمعنا منذ عام ١٩٣٥ وما بعده .. حيث المجتمع الاقطاعي الراسمالي المستعمر ، الذي يقتسم خيراته الاستعمار ... والسراي.. والاحزاب الاقطاعية الرأسمالية التي تعتبر نفسها « اصحاب المصالح الحقيقية في البلاد ! » ، تعيش الاسرة بوضعها الجديد في هذه الفترة التي اعقبت معاهدة ١٩٣٦ ، وما صحبها من دعايات ضخمة من ان البلاد حصلت على كل مطالبها ، وان هذه هي معاهدة الشرف والاستقلال !! وبذلك تميع كفاح الشعب ، وانطفأت هبته عام ١٩٣٥ ، واحس بخيبة امل لا شعورية نتجت عن التناقض بين ما قيل وما تحقق فعلا من ربطنا بحلف ابدي مع المستعمر والاعتراف بشرعية الاحتلال ، ولعله مما يعبر عن الشك في جدوى المعاهدة قول احد المواطنين الذين يلقون حسين في القطار : اتظن ان تلغى الامتيازات حقا ، لقد هبط المد الثوري ، وازداد تقوقع الطبقة المتوسطة حول نفسها ، واخذت تجتر مشاكلها الخاصة وتعيشها بعمق اذا صح هذا التعبير ، وتحاول ان تجد لها حلولا فردية ، وكان لا يمكن بعد عقد المعاهدة ان تنفس هن هذه المشاكل الخاصة ، وتجد حلا لها بالمساهمة في مشكلة الوطن الكبرى ، كما حدث في « عودة الروح » لتوفيق الحكيم ، اذ وجد ابطال القصة حلا لازمتهم الخاصة بالاشتراك في ثورة ١٩١٩ ، كان لا يمكن هذا بعد عقد المعاهدة لان المشكلة الكبرى ، والمطالب الوطنية الاساسية زيفت ، واريد ايهام الشعب انها تحققت وفي ذلك الوقت لم تكن البورجوازية الوطنية قد تؤلف القيادة بعد !

هذه هي الفترة التي عاشت فيها الاسرة ، وهذا هو المجال التاريخي الذي دارت فيه معظم احداث القصة ، حقا لقد عاشت الاسرة عاما قبل توقيع المعاهدة اثناء الانطلاقة الشعبية عام ١٩٣٥ ، ومطالبة الطلبة باتحاد الزعماء ، ولكن الام كانت حائلا بين ولديها « حسين وحسنين » وبين الاشتراك في الاحداث العامة ، فلم نر الا « حسنين » يشترك في المظاهرات السلمية فقط ، وبعد توقيع المعاهدة انقطعت صلة الاسرة نهائيا بالحياة العامة ، ولا نرى الا خوف الام من المظاهرات ما زال ماثلا حتى بعد تخرج حسنين ضابطا ، وسخريته منها بانه سيشترك في المظاهرات لا مساهما فيها ولكن لاخمادها !

ازدادت الاسرة قوقعة حول نفسها نتيجة لهذه الاسباب العامة وبسبب حزم الام ، وبسبب موت الاب ، و .. استغرقت الاسرة مشاعرها ، فلم تترك نصيبا لوطنية ، وهكذا بدأ وضعها الجديد بداية سيئة ، وعليها ان تسير وان تعيش ، وان تجد حلا لمشكلة حياتها ، ولا يمكن لامثال هذه الاسرة ، في مثل وضعها ، الا ان تتحطم وتتفتت ، وتهرسها عجلة المجتمع التي لا ترحم ، بل هذا هو الطبيعي لها ، في مجمع خلا من العدالة الاجتماعية ، يفنى فيه الانسان ويموت ، وتتحطم الاسر وتتفتت دون ان يشعر المجتمع ، او تتحرك الدولة ، او تحس حتى انها مسئولة عن ذلك ، وهذا ما كانت معرضة له هذه الاسرة في كل وقت ، فالخطر ماثل دائما – كما يدركه حسين – « كان يتعرض احدهم للمرض ، او يجد من ناحية المدرسة طلب ، او تتعطل « نفيسة » عن الكسب ردحا من الزمن ، او أو أو مما لا يقف عند حد » من من هذه الاسلحة المصلتة ابدا على هذه الاسرة وامثالها .

ولكن الكاتب .. مد في عمر الاسرة ، وحقنها بكل الادوية

المسكنة التي قربتها من الشفاء .. ولكنه الشفاء الكاذب ، الصحوة التي تسبق الموت ، فهي تحمل في داخلها جرثومة انهيارها وتحطيمها هذا التحطيم هو النتيجة الحتمية لاسرة في مثل وضعها وظروفها ، وفي مجتمع مثل مجتمعها ! !

فما هي هذه المسكنات التي اطالت حياة الاسرة بعض الشيء ؟!

وكيف واجه افراد الاسرة هذا الوضع الجديد البائس ؟!

لقد كانت هذه المسكنات مثل المخدر الذي يزول بعد ان يخلف مضاعفات وآلام شديدة ، « كدمل خطير ينكشف فجأة عن مضاعفات سامة ، في الوقت الذي يظن به الاندمال والشفاء » ، لقد كانت هذه المسكنات ايضا التي مدت في حياة الاسرة بعض الشيء من اهم اسباب تفتتها والقضاء عليها .. كانت هذه المسكنات وسائل ملتوية وسراديب خلفية ، وطرقا غير شريفة .. ولكن .. لم يكن هناك بد منها ، فلولاها لماتت الاسرة في المهد . فالمعاش ضئيل لا يكفي ودون الحصول عليه اهوال وازمان .. وروتين !

ولولا « حسن » الابن الاكبر .. الذي يعمل فتوة قهوة « بدرب طياب » وعشيقا « لموس » وتاجر مخدرات ، لما عاشت الاسرة ولما مضت في حياتها ، وحسن فشل في دراسته ، وعانى حياة التسكع وكان بحق كما يدعوه ابوه وقت الغضب « ابن شارع » ، وكان كما يقول عنه حسنين « ضحية للمرحوم والدنا وكان والدنا ضحية لضيق ذات اليد » ، فقد كان الاب يدلل حسن لانهم كانوا يعيشون في عوز فيأبى ان يجمع على ابنه الشدة والفقر ، ففشل في تعليمه ، وفشل في عدة اعمال صغيرة الحق بها ، واندفع الى حياة الشارع مرغما لانه لا طريق غيرها ، فهل يعمل كما يقول مستنكرا « ميكانيكي بقروش معدودات في اليوم » ويتشاجر كل يوم مع صاحب العمل ! .. لم يكن هناك بد من ان ينغمر في هذه الحياة ويعيشها ، ثم يتمثل اساليبها جيدا ويحذق استخدامها .. حقا ان الطريقة التي يعيش عليها المرء هي التي تحدد نوع تفكيره ! فلقد عاش حسن حياته على اعتبار انه لا يوجد « رب ولا اخلاق ولا بوليس ! » يسخر من الله عندما تقول له امه ان الله لا ينسى عبدا من عباده ويقول « انا عبد من عباده .. فلننظر كيف يذكرنا .. لماذا اخذ والدنا ؟ .. لماذا يعلن حكمته على حساب امثالنا من الضحايا ؟ » ، وهو يعتقد انه ليس ثمة حياة شريفة واخرى غير شريفة .. ليس هناك الا حياة فحسب .. فالحياة التي نظنها عظيمة سامية تقوم على المظاهر فقط ، وهي في الواقع تقوم وتنطوي على اساس غير شريف ، فهذه من تلك !! النجمة التي تتلألأ على كتف « حسنين » من اموال المخدرات التي يتجر بها « حسن » .. وعندما يقول له حسنين ان هناك اناسا يكسبون بدون عرق يرد قائلا .. هذه غاية الشطارة ... ان تكسب بعرق جباه الاخرين ! ! ، المهم ان تتقدم باي طريق ، ولكانه يتمثل ويعي جيدا النصيحة التي يقدمها احد ابطال « بلزاك في رواية « الاب جوريو » حيث يقول : لكي تنجح في هذه الحياة ليس امامك الا احد طريقين ، اما ان تتسلل كوباء ، او تنفجر بين الناس كقنبلة ، اما الشرف فطعام الحمقى ! ..

بفضل مال حسن الذي انتزعه من انياب الحياة ، من تجارة المخدرات ، ومن عشيقته « الموس » ومن عمله « فتوة » عاشت الاسرة لحظات كالمواسم ، كالواحة في حياتها المجدبة ، فهو ياتي لها احيانا « بفخذ » خروف فيسري عنها بعد ان كادت تنسى طعم اللحوم ، وكانها تؤمن بفلسفة المعري كما يقول حسنين فيتهكم حسن على ذلك قائلا : ان المدارس انما تعلمكم ذلك حتى تاكل اللحم وحدها ! ، وكانما يشير بذلك الى ان الحكام يخدعون ويخدرون الشعب ليغتصبوا خيرات البلاد لانفسهم ، ويشير ايضا - وهو الذي خبر الحياة وادرك واقعها - الى بعد تعليم المدارس عن حقيقة الحياة عندما يقول لحسنين مستنكرا « هل تظن انهم يعلمونكم في المدرسة كل شيء ؟! » ان هذه العبارات الصادقة الموحية اتى بها الكاتب عن وعي وفهم وقصد على لسان هذه الشخصية التي ادركت اساليب المجتمع ، وحقيقة واقعه .

بفضل مال حسن غير الشريف ايضا ، استطاع حسين ان يتزود بما كان في حاجة اليه كي يباشر عمله الحكومي .. وصار موظفا .. واستطاع حسنين ان يدفع مصروفات الكلية الحربية وصار ضابطا ..

ثم انه لولا وساطة احمد بك يسري - والوساطة وسيلة غير شريفة - لما توظف حسين ، ولما دخل حسنين الحربية .. فلو استمسكت الاسرة باهداب الشرف لما اصبح حسين موظفا ، ولما غدا حسين ضابطا .

ثم نفيسة .. الابنة التي خلت من كل مسحة جمال ... لقد كان عليها ان تعمل خياطة « لكي تعين اسرتها » ، وتساهم في نفقاتها الضئيلة » ، ثم دفعت الى الانحدار دفعا حتى اصبحت « مومسا » ، لقد اضطرتها كل ظروف حياتها الى الانحدار والسقوط .. « فهناك الرغبة المشبوبة التي تشتعل في دمها ولا حيلة لها فيها » والتي لم تستطع ان تشبعها بالطريق المشروع لان قطار الزواج فاتها .. بل ولماذا يرغب فيها زوج ؟! ، المالها وهي فقيرة معدمة يتيمة ، الجمالها وقد عاداها الجمال ، المنصب والدها وجاهه .. وهو يرقد رقدته الابدية في فراشه بقبور الصدقات . انها ليس لديها اي رأسمال كما تدرك هي « لا مال ولا جمال ولا اب » ، وبالتالي لازوج .. والعمر يمر ، والقطار يبتعد ، والرغبة تشتعل وتستعر .. وكان لا بد ان تلبي اول نداء وتتشبث باي امل ، وتقتنع نفسهابصدقة ولو كان كاذبا ... فيخدعها جابر سلمان ابن البقال المجاور ، فتسقط وتنحدر .. وتستمر في السقوط .. ومهد لها ذلك طبيعة حياتها الجديدة .. عملها كخياطةمتنقلة من بيت الى بيت .. فاتيح لها لقاء جابر . ومن اعقب جابر !

ثم انها « ترضى الهوان في سبيل النقود التي تمس حاجة اسرتها » فمن هذه الاموال التي كانت تجمعها من عملها كخياطة ، وكـ « مومس » كانت تعيش اسرتها ، ولولا ذلك لما واصلت الاسرة حياتها .. وهذه هي الحقيقة كما يدركها حسين ويصرخ له بها حسنين « لو كانت تزوجت بل لو لم تكن خياطة (في وقتها لم يكن يعرف انها مومس ايضا) لاضطر كلانا الى الانقطاع عن المدرسة » .

وتستمر « نفيسة » في سقوطها وانحدارها ، رغم انها تهجر عملها كخياطة بعد تخرج « حسنين » ، لانها لاتستطيع التخلص من ماضيها ، وتشعر انها « تشد اليه بقوة شيطانية فلا تستطيع منه فكاكا . » ولقد تحطمت حياة نفيسة في النهاية ، لان « حسنين » اراد ان يخضعها لمنطق القيم والشرف ، لا حبا في القيم والشرف ، ولكن لكي يمضي من فوق جثتها الى طموحه الاناني !. وعلى كل ، كان لابد ان تتحطم حياة نفيسة ، فلا بد ان ينكشف امرها وتعاني ويلات الحياة .. وهي نفسها تعي ذلك جيدا، وتريد الانتحار، لان ما ينتظرها في الحياة«افظع من الموت!»

ورغم كل هذه المسكنات ، والاساليب غير الشريفة ، كيف عاشت هذه الاسرة التعسة ؟!.. هل عاشت في رغد من العيش ؟!

لقد عانت الاسرة الامرين .. وعاشت حياة بؤس وكفاف .. رغم كل هذا . ورغم بعض الصدقات التي كان يجود بها جارهم فريد افندي على هيئة اتعاب دروس يعطيها حسين وحسنين لابنه .. حياة كدح وتقتير ومعاناة تولت قيادتها الام ، نموذجللام المصرية الجاهلة ، الغير واعية بحقيقة المشكلة وجذورها .. تمنع اولادها من الاشتراك في المظاهرات .. وتشك في قول حسنين « لو لم يكن الاحتلال لما تركت اسرتنا بعد موت ابي بلا معين » ، ولم تكبد تحفل بالاحاديث العامة التي تساق اليها احيانا . كل مايعنيها ان تصل بابنيها ، حسين وحسنين ، « الى بر الامان وان تاوى الاسرةمنهما الى ركن ركين » .. وهي بالطبع لاتعلم ان مشكلة اسرتها جزء من المشكلة العامة ، وتعتقد انها تستطيع حلها دون الالتجاء الى الاساليب العامة .. وهي تعلم ان هناك اسرا في وضع اسرتها بل واسوأ من وضعها .. ولكنها لاتعرف سبيلا للخلاص وتشعر ان واجبها هو التحرك في حدود امكانياتها .. بالحزم والشدة والتقتير .. والحق انها نهضت تناضل مايتهدد اسرتها في عناد وصبر حتى انها « لم تواتها فرصة للتنفيس عن حزنها بما جبهها من هموم العيش واثقاله » ، لقد منعت المصروف عن حسين وحسنين ، واضطرتهما الى ان ياكلا الغداء الذي تقدمه لهما المدرسة مع ان « التلاميذ الذين

يأكلون في المدرسة حتى الشبع موضع غمز عادة »، والفت وجبة العشاء « اذ يندر ان تعترف به »، وساست الاسرة في ظل هذه الاوضاع العصيبة .. وتحت راية الحزم والتقتير ، حتى فكر حسين « ماذا يكون مصيرنا لولاها ، كيف غذتنا وكستنا .. كيف نهضت بضرورات اسرتنا في ظل هذه الظروف القاسية .» ، ويذكر امه دون وعي حين يرى الارض الخضراء المنبسطة الصامتة ... الصابرة ، لقد « كانت ترقع البنطلون حتى اذا بلغ اليأس قلبته ، فاذا ادركه اليأس مرة اخرى قصت اطرافه وجعلت منه سروالا داخليا ، ثم تصنع من بعضه طاقية وتستعمل بقيته ممسحة ، ولا يلفظه البيت الا فتيتا ! »

ثم .. ماذا كانت نتيجة هذا كله ؟!

لقد تحطمت الاسرة في النهاية ، رغم كل هذا الضنك والكفاف .. ورغم كل هذه الوسائل غير الشريفة التي جعلت من حسين موظفا ، ومن حسنين ضابطا ..

فلماذا حدث ذلك ؟! الم يكن سبيل النجاح هو الانفجار او التسلل، واستخدام الاساليب الغير شريفة ؟!

حقا .. قد ينجح المرء اذا استخدم مثل هذه الاساليب والوسائل ، وداس على كل القيم والفضائل .. ولكنه نجاح فردي .. حل فردي لمشكلة الحياة .. قد ينجح في ذلك فرد او بضعة افراد .. وقد يصلون الى حل مشكلتهم .. ولكن هذا لايحل مشكلة الاغلبية الساحقة من المجتمع .. والكاتب لايصور حالة خاصة ـ او طريقة حل مشكلة فردية تمثل حالة او بضع حالات .. ولكنه يصور الانماط .. النماذج العامة التي تمثل الاغلبية العظمى من الشعب ـ ويرسم طريق العلاج السليم .

ونجيب محفوظ نفسه ، في حديث له ، نشر بمجلة الرسالة الجديدة عدد ٣٧ يقول :

« ان خاتمة الاسرة المصرية التي تناولتها قصة « بداية ونهاية » وهي اسرة حقيقية اعرف افرادها جميعا .. كانت في الواقع خاتمة سعيدة.. ولكنني فضلت ان اعرض قصتها منتهية هكذا بمأساة حتى استطيع ان اشحن عواطف القراء بانفعالات كالتي بعثتني على كتابتها »

حقا قد تستطيع اسرة مثل اسرة « بداية ونهاية » ـ وهذا ماحدث للاسرة الحقيقية التي يشير اليها الكاتب ـ ان تصل الى بر الامان .. الى حل لمشكلتها معتمدة على هذه الطرق الملتوية غير الشريفة .. ولكنها اسرة واحدة .. حالة فردية لا عامة .. ليست نموذجا .. وهذا ماجعل نجيب محفوظ يصر بوعي على انهاء هذه القصة بمأساة .. لقد التقط القصة الحقيقية من الواقع .. ولكنه عممها .. لم يصورها كمحاولة فردية بل عممها وجعلها نموذجا للاغلبية الساحقة من اسر شعبنا ، حتى يشحن ـ كما يقول ـ عواطف القراء بانفعالات معينة دفعته الى كتابة القصة .. ليجعلهم يدركون حقيقة مشكلتهم وجذور مآسيهم ويعون اسبابهم وعللها ، ثم يندفعون لحلها .. حلا جماعيا سليما. وهذا هو الدور الذي قام به حسين في القصة .. وفهمه لمشكلة اسرته ووعيه لحال امته ... وتفكيره في حل ، وفي مجتمع خير من المجتمع الذي يعيش فيه .

بعكس حسنين الذي لا يريد الا ان يحل مشكلته الخاصة ولو على انقاض اسرته .. ولا يدرك ان مشكلته الخاصة جزء لا يتجزأ من مشكلة اسرته ومشكلة مجتمعه .. انه يريد ان ينتقل من طبقة الى طبقة ، غير واع لظروف الطبقة التي ينتمي اليها ، وحقيقة وضعها كطبقة مقهورة .. فتكون النتيجة ان يتحطم . قد يستطيع حسنين « الفرد » ان ينجح في الوصول الى غرضه ، ولكن حسنين النموذج الذي يمثل طبقته لا يستطيع ذلك بمثل هذه الوسائل ، والكاتب يصور حسنين العام .. حسنين النموذج !

ان حسنين يريد حلا فرديا ، غير واقعي .. فتكون النتيجة ان يفشل ويتحطم .. انه ضحية ظروف حياته .. وقيم طبقته .. ضحية عدم وعيه بحقيقة مشكلته ، وانها لا تحل حلا فرديا . انه فتى طموح ، متطلع ، متوثب ، فهو يشترك في المظاهرات التي عمت مصر عام ١٩٣٥ من دون حسين ، ويهتف « ليسقط هور ابن الثور » ولكن ظروف اسرته ، وظروف مجتمعه تحول دون طموحه السياسي .. فمات والده ، وانشغلت اسرته بهموم العيش واثقاله « واستغرقت الاسرة مشاعرها فلم تترك نصيبا للوطنية » ، ثم هناك الام التي حالت بين ابنيها وبين السياسة ، فاصبح حسنين يشترك في المظاهرات السلمية فقط ، ويهتم بالسياسة ، ولكن ليس بالقدر الذي يجعل منه « تلميذا سياسيا » .. وحينما « يقول لامه منفسا عن شعور مكبوت لتخلفه عن الثائرين : ان الاوطان تحيا بموت الابطال » ترميه بنظرة صارمة تسكته عن الكلام .

ثم ان الكفاح الوطني نفسه يمتع ، وخدعت الجماهير الثائرة .. وخان الزعماء الاقطاعيون الرأسماليون الشعب بعقد معاهدة الشرف والاستقلال !! وانطوت الجماهير على نفسها ، وتقوقعت حول ذاتها ، تجتر مشاكلها الخاصة ، وتعيشها بعمق وفردية !

وهكذا لم يجد طموح حسنين السياسي البيئة او الظروف الصالحة ، فاصبح طموحا فرديا أنانيا .. بورجوازيا . لم تنصهر نفسه في الكفاح السياسي .. ولم تجد متنفسا لها الا في الطموح الفردي الاناني .. فامتلأت بكل قيم الطبقة المتوسطة التي تريد ان تبدو في مظهر الطبقة التي فوقها . وعاش حياة البورجوازي الصغير بعمق : اناني .. لا يفكر الا في نفسه ، وكيف يبدو للناس .. وماذا يقولون عنه .. الخ ..

حينما كان والده ميتا في البيت ، كان لا يفكر في فراقه الابدي لابيه . ولا في الكارثة التي حلت باسرته ، بل « كان يرجو لابيه جنازة رائعة تليق بمقامه .. وبمكانته هو التي يجب ان يظهر بها امام الناس . بينما لم يكن اخواه ليكترثا لهذا الامر » وكان يعد الاخفاق في ذلك كارثة كالموت نفسه .. واعترض على عمل اخته خياطة .. لا اشفاقا عليها ، ولكن لانه لا يريد ان يكون اخا لخياطة ! .. وهو ـ وقد تشبع بقيم طبقته ـ يهمه المظهر لا الجوهر ، ويود ان يظهر امام الناس بمظهر الثراء والغنى ، حتى ولو كان يعاني ويلات الفقر .. فيكذب على التلاميذ مدعيا ان والده ترك لهم عقارات . وحين حصل على البكالوريا رفض دخول معهد التربية الابتدائي المجاني .. بينما لا يرفض دخول الحربية بالمجان . لانه في الحالة الاولى « سيعرف الناس اني تعلمت بالمجان » ، اما في الحالة الثانية فلن يعلم احد .. الا كاتب المدرسة !

وكان حسنين ثائرا متمردا على الدوام ... وكانت تنبعث من نفسه احيانا لحظات نورانية واشعاعات كاشفة ، فيها بعض الوعي والادراك .. ولكنها كانت مجرد انطلاقات شعورية ساخطة متمردة على وضعها القاسي تريد التخلص منه بأي وسيلة ... وكانت تنبعث من انانيته التي تتوارى خلف ما يظنه الصالح العام . فهو يقول لحسين « ان من يستسلم للاقدار يشجعها على التمادي في طغيانها » ، ويقول لامه بايمان : لو لم يكن الاحتلال لما تركت اسرتنا بعد موت ابي بلا معين. ويقول ايضا لحسين : ـ اننا يجب ان نكون جميعا اغنياء !

ـ واذا لم يكن هذا ؟ !

ـ ان نكون جميعا فقراء ..

ـ واذ لم يكن هذا ؟!

فقال بحنق : اذن نثور ونقتل ونسرق ..

ويرد حسين بوعي : هذا ما نفعله منذ الاف السنين ! !

وكأنما يثير حنق حسنين ان يكون الناس اغنياء من دونه ، او ممتازين عنه ، فهو يريد المساواة .. لا رغبته في المساواة.. فهو اول من يحب الاستعلاء والمركز المرموق ، ويقول لحسين عن حياتهم البائسة : يجب ان تتغير .. من حقنا ولا شك ان ننعم بالمسكن النظيف والمآكل الصحي ، والمركز المرموق .. فهو يريد المساواة .. لان المساواة هنا هي الوسيلة الوحيدة لكي لا يبدو هو اقل من الناس .. انها اذن مجرد احساسات ثائرة ساخطة انانية . تريد ان تتخلص مما تعانيه .. ولا يعنيها الغير بعد ذلك .. انها فقط تتوارى خلف الصالح العام .

انه يدرك ان اتمامه هو تعليمه .. كان على حساب التضحية باتمام تعليم حسين .. وعمل نفيسه كخياطة .. وانحدار حسن ، يدرك كل ذلك .. ولكن .. ما ان يجد لنفسه هو طريق الخلاص .. ويصبح ضابطا ، حتى يصبح كل همه ان يحافظ على مركزه ... على نجمته . على رأسماله ، بأي وسيلة ، ولو كان ذلك على أنقاض كل من وقف الى جانبه .. فالطريقة التي يعيش عليها المرء هي التي تحدد طبيعة ونوع تفكيره ..

انه يطلب من حسن ان يهجر حياته « الغير شريفة » ، لا حبا في الشرف ، ولكن صونا لنجمته ، فيقول له حسن معريا اعماقه .. كنت قبل عام في حاجة الى النقود ، فلم تهتم بالنصح والارشاد ، اما وقد اصبحت ضابطا فلا يهمك الا الدفاع عن هذه النجمة اللامعة ، ان حسنين يدرك من اين دفع مصروفات الحربية .. لقد ثار حنقه وقتها من ان الحاجة تسيمه الخسف ، ولكنه لم يثر للشرف ، وكل ما فكر فيه ، ان حياة حسن فضيحة يجب التستر عليها ، اي انه حتى في ذلك الوقت لم يكن يفكر فيما يتعرض له اخوه من اخطار ، ولكن يخشى على سمعه نفسه . وهو يرفض دعوة حسن ان يبدأ معا حياة شريفة .. انه لا يعنيه الشرف .. بل النجمة التي على كتفه .. ويسلك في سبيل المحافظة عليها سلوكا غير شريف ، فيتمنى لو لم يكن حسن موجودا على الاطلاق .. مع ان حسن هو الذي اوجده .. ضابطا ! . وحين يبحث البوليس عن حسن لا يجده ، لا يفكر في مأساة اخيه ، بل في نفسه فقط ، ويرجو لحسن « لو يفر الى بلد بعيد فيختفي الى الابد.»

يشعر حسنين انه اوشك على بلوغ امانيه وقطف الثمار ، و « ان الماضي في طور الاحتضار » فحسن مختف .. ونفيسة هجرت الخياطة واصبحت انسة محترمة ! فيزداد سلوكه حطة ، ويفسخ خطوبته « لبهية » ابنة جارهم فريد افندي ، لانها دقة قديمة ، ولا يستطيع وهو الضابط – ان يظهر بها امام الناس .. ولانه يريد على حد قوله « زوجة من وسط ارقى » .. فيخطب ابنة احمد بك يسري ، بعد ان اختلق له قصة وهمية عن كبهم قضية وقف قديم، وهي ليستاجمل من بهية ولكنها « تمثلت بعينيه الطموحتين كرمز للدنيا الراقية التي يتطلع بشغف جنوني .. لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياة » !

ولكن الماضي لم يكن في طور الاحتضار كما كان يظن .. ولكنه كما ادركه حسين « كدمل خطير ينكشف فجاة عن مضاعفات سامة في الوقت الذي يظن به الاندمال والشفاء » ..

فرفضت أسرة احمد بك يسري طلب زواجه .. وليس المهم في الرفض فحسب ، ولكن في اسباب الرفض التي اتخذتها الاسرة ومعارفها مادة للتندر والتشنيع ، وهي وضع حسن وحقيقة حياته، وان اخته نفسية « كانت تعمل لترتزق !! » وهوت الصفعة على وجه حسنين وهوت معها مطرقة ماضيه الثقيلة ، هوت على يافوخه ونثرته هشيما بعد ان كان يظن ان الماضي في طور الاحتضار !!

وتولت الصفعات والضربات فلم يلبث ان جاء حسن الى البيت مصابا باصابة خطيرة .. وشعر حسنين ان كرامته تحتضر ، انه يموت موتا بطيئا قاسيا ، ان الامر لا بد سينكشف حتى لو مات حسن و « ستفوح النتانة من البيت على هيئة فضيحة رائعة ! » ان كابوسا مخيفا يجثم على صدره .. وما ان يفر حسن من البيت و « يتنفس في اعماقه امل جديد » حتى يدعى الى نقطة السكاكيني ، فأخته « نفيسة » قد ضبطت في بيت للدعارة . اذن فهذه هي الضربة القاضية ، هذه هي نهاية المطاف ، وشعر انه « اثر من اثار ماض منطو انقطعت صلته بالحاضر فضلا عن المستقبل .. كان ، هذا هو ، ولكنه لا يكون .. ولن يكون ! » . ثم تشبث طموحه المنهار ببقايا امل « لو كانت ميتة لادعيت اني لا اعرفها على الفور » .. ولكنها ما زالت حية .. وهم بأن يقتلها في الشارع « مدفوعا بغضبمستعر واحساس معذب بالواجب » ، ولكنها حين أوقفته واخبرته انها ستقتل نفسها شعر بان « حملا ثقيلا تزحزح عن عاتقه وهوى بعيدا » ، وعاد يتشبث بالامل .. ولكنها ما ان ترمي بنفسها في النيل ، ويتجمع الناس ويظهر انها امرأة ، حتى تخور قواه ويتبدد امله .. فسينكشف الامر حتما ، وستفوح الرائحة .. سيعلم الناس انها اخته .. لا فائدة . ويلقي بنفسه في النيل ، ضحية لقيم مجتمعه المتهافتة .. ضحية لانانيته وطموحه الاحمق الذي لا يدرك حقيقة وضعه ، وانه لا يستطيع ان ينتقل من طبقة الى طبقة .. انه كنموذج لفرد من الطبقة المتوسطة لا يستطيع ان ينتقل الى الطبقة التي فوقها .. واذا حاول ذلك فسيتحطم .. ولقد تحطم حسنين لانه لم يدرك ان مشكلته الخاصة جزء من المشكلة العامة . لقد وصفته امه وصفا صادقا حين قالت له ذات يوم : « هيهات ان يدرك عقلك الغبي حقيقة حالنا ! »

هرب حسن وما زال البوليس يبحث عنه ، وانتحرت نفيسة ، وانتحر حسنين ، ونجا حسين . ونجاة حسين لها مغزى ودلالة هامة ارادها المؤلف ، وأدى اليها تطور الاحداث .. فحسين هو الوحيد الذي سلك السلوك السليم .. هو الذي لاءم بين نفسه وبين وضع اسرته .. فهو يشبه امه في « صبرها وعقلها واخلاصها للاسرة » .. وهو يتالم لمصير اخته كخياطة ، ولكنه يستسخف الاعتراض فهو يدرك الحال .. ويعلم ان المجتمع مسؤول عن مأساة اسرته و « اننا نغالي في تحميل الله مسئولية مصائبنا الكثيرة .. وانه اذا كان الله مسئول عن موت والدنا ، فليس مسئولا عن قلة معاشه » هكذا يقول لحسنين المتمرد على الاوضاع .. والله ! ويزداد ادراكه لحقيقة الحياة والواقع باضطراد .. لقد ثارت نفسه حينما اعطاه حسن « اساور » رفيقته « المومس » ليبيعها ويسافر بثمنها الى عمله ، وبعد ان يتردد لحظات يدرك انه لا يستطيع الرفض والتمسك بالشرف .. فماذا يجديه الشرف وهو جائع .. « شريف وجائع ! » ، ويعرف اي شيء ساق حسن الى « هذا الوكر » .. ويلخص مأساتهم في جملة واحدة « اسرة ضائعة وحياة قاسية » .. ويدرك كذلك انهم كالدجاج يلتقطون رزقهم من القاذورات .. ولكنه يدرك ايضا انه لا محيد لهم عن ذلك .. ويبرر ذلك فيما بعد بانهم كانوا في حالة دفاع عن النفس التي تستحل حتى القتل .. فأسرتهم كانت معرضة للانهيار في كل وقت ، اذا زادت المصروفات عن الايرادات ، كان يمرض احد ، أو تتوقف نفيسة عن الكسب .. أو أو أو مما لا يقف عند حد .

ثم ان حسين لا يتمسك بالقيم البالية .. بالمظاهر وكلام الناس، كما يفعل حسنين ، ويقول اننا نستطيع ان نعيش دون ان نتاثر كثيرا بكلام الناس .. وهو ليس كحسنين ايضا ، ما ان يتوظف حتى يتناسى الوضع ، ويندفع وراء طموحه الاناني .. حقا ان له مطامح واحلاما ، ولكنه يدرك الواقع ولا يندفع بحمق اعمى . وحينما يرفض ان يتزوج ابنة باشكاتب المدرسة التي يعمل كاتبا بها يقول له الاخير « انت خواف » ، ولكن .. « ليس الخوف الذي يمنعه .. ولكنه ادراك الموقف على حقيقته » فاسرته ما زالت في حاجة الى معونته .. ولم يفكر في الزواج الا بعد تخرج حسنين وهجره بهية فخطبها لنفسه ، بعد ان كان قد تنازل عنها لاخيه في اول الامر .

وحسنين يدرك كذلك حقيقة « الفوارق التي تفصل بين الناس عامة » ... وهي عدم تكافؤ الفرص ، فحسنين صار ضابطا حين اتيحت له الفرصة ، بينما لم يتم هو تعليمه لانه لم يتح له ذلك . وهو يربط دائما بين آلام اسرته وآلام المجتمع .. ويعرف انهم في اسرته – وهي صورة من المجتمع – يأكلون بعضهم بعضا ، ويقول « اننا ناكل بعضنا بعضا .. ينبغي ان نسر بتهريج حسن ما دام يجيئنا كل شهر « بفخذ خروف ... وينبغي ان يسر باختنا الخياطة ما دامت تعد لنا لقمتنا الجافة – وهذا الشاب المتذمر – حسنين – ينبغي ان يسر بانقطاعي عن التعليم ما دام سيتم تعليمه هو .. ياكل بعضنا بعضا ... اي وحشية .. اي حياة !» وهذا وصف صادق ، ليس لحياة اسرتهم فحسب، ولكن لحياة المجتمع كله ، فالسمك الكبير يلتهم السمك الصغير ، والسمك الصغير يلتهم السمك الاصغر ... وهكذا !!

وتظل هذه الفكرة تلح على فكره وتؤرقه ، فيتساءل « يا للعجب .. ان مصر تاكل بنيها بلا رحمة .. ومع هذا يقال اننا شعب راض

.. هذا لعمري منتهى البؤس ، ان تكون بائسا وراضيا .. هو الموت نفسه .. لولا الفقر لواصلت تعلمي.. هل من ذلك شك ؟ الجاه والحظ والمهن المحترمة في بلدنا هذا وراثية .. لست حاقدا ولكني حزين ... حزين على نفسي وعلى الملايين .. لست فردا ولكنني امة مظلومة »!

ثم هو لا يكتفي بادراك مشكلة اسرته ومشكلة مجتمعه ، وجذورها واسبابها .. وان مأساة اسرته جزء من المأساة العامة ، مرتبطة بها ، تحل بحلها . هو لا يكتفي بالادراك .. ولكنه يقرأ كثيرا ، ويفكر في طريق الحل والخلاص .. يقرأ الاشتراكية لرمزي ماكدونالد المترجم عن الانكليزية .. ويعرف ان النظام الاشتراكي لا يتعارض مع الدين او الاسرة او الاخلاق ، التي تشبع بحبها واحترامها منذ الصغر.. لقد كان يفكر دائما في مجتمع خير من المجتمع الذي يعيش بين احضانه..

ولكن في طبيعة حسين ناحية ضعف ، فيعتري نفسه شيء من الغموض والصوفية ، لقد كان يجد مسرورا في ان يكون على حق وان اساء الناس فهمه ، بل اكثر من هذا « تركز سروره في ان يسيء الناس فهمه ، وهو على حق ... سرور غامض كذلك السرور الذي يخامره وهو يستسلم لعنت القضاء » .. انها حالة مرضية ماسوشية لعلها جاءته من قسوة الظروف التي عاناها . وهو يحلم بالاشتراكية ، وبمجتمع افضل ، ولكنه لا يتجه نحو عمل ايجابي ، ولا يشترك في المظاهرات ، وكان اقل من حسنين اهتماما بالشئون العامة .. ثم ما هي الاشتراكية التي يراها طريقا للعلاج ؟!.. انها الاشتراكية التي يكتب عنها ماكدونالد .. وهي ليست الاشتراكية العلمية السليمة.. على كل .. يكفينا من حسين ادراكه مأساة اسرته ، وفهمه انها جزء من مأساة مجتمعه .. وتفكيره في طريق للخلاص .. وهذا ما يريده الكاتب من القراء لكي يتجهوا نحو الحل الواعي،الواقعي،العلمي السليم .

وهكذا كانت النهاية في « بداية ونهاية » حتمية ضرورية ... نهاية واقعية .. واعية .. هادفة ، ارادها المؤلف بوعي ، واقتضاها تطور الاحداث ، ومنطق الحياة والواقع .. فحسن كان لا بد ان يكشف امره وينتهي نهاية سيئة ... وهو نفسه يعرف ذلك ، ان اسجن او اقتل ! واذا قدر علي ان اقتل نجوت بطبيعة الحال من السجن.»

ونفيسة كان لا بد ايضا ان يكشف سرها مهما طال الزمن .. ثم تقضي نحبها ، لان ماينتظرها في الحياة كما تعرف هي « افظع من الموت ! » ..

وحسنين كان لا بد كذلك ان تختم حياته بمأساة ، فطموحه الاناني الاحمق يسيطر عليه وتتركز فيه حياته ، وهو لا يستطيع ان يحققه ، فكانت نهايته التراجيدية ... وحين قدمت « بداية ونهاية » ، كمسرحية لم ينتحر فيها حسنين ، وهذا مناقض لروح الرواية وهدفها ، لان انتحاره هنا تجسيم لطموحه المنهار وتعبير عن آماله المحطمة .

اما حسين ، فهو الوحيد الذي نجا ، لانه سلك السلوك السليم ، وادرك حقيقة مشكلة اسرته وانها جزء من المشكلة العامة ، وفكر في طريق لخلاص امته ، وفي مجتمع افضل ، ثم انه اضطر الى استخدام الوسائل غير الشريفة ــ هو واسرته ــ لكي يعيش ، ولكنه ادرك ان ذلك ليس الطريق الصحيح .. بل هناك حل جماعي سليم .. وهو الاشتراكية . ولعله من الغريب حقا ان يفكر البعض ــ كما قرأنا في الصحف ــ في تغيير نهاية الرواية وجعلها نهاية سعيدة ، وذلك عند اخراجها للسينما . ان ذلك يقوض القصة من اساسها ، ويذهب بمحتواها ومضمونها .. ان عنوان الرواية نفسه ، عنوان هادف .. واع يوحي بدلالتها « بداية .. ونهاية » .. كانت البداية مأساة .. فلزم ان تكون النهاية مأساة ... وذلك في ظل مجتمع فيه « الجاه والحظ والمهن المحترمة وراثية ! »

ان « بداية ونهاية » عمل ابداعي خلاق ، من اروع ما انتج « نجيب محفوظ » .. ومن اروع ما ظهر من روايات في الادب العربي .. انها رواية هادفة .. واعية .. صادقة ، كشفت لنا اعماق المجتمع، واضاءت جوانبه ، وعرت خفايا الشخصيات ، ورسمت طريق العلاج .

« محمود حشمت عبد الظاهر »

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ــ تلفون ٣٢٨٣٢

الادارة

شارع سوريا ــ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

✶

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان
او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

✶

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

✶

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب ٤١٢٣